السر في انتشار الإسلام

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد احمد عرفة

وكيل كلية الشريعة الإسلامية

وعضو اللجنة العلمية لهيئة كبار العلماء

في حماية الدين والدعوة الى سبيل الله



مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

ملتزمها عمر افندى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

انتشار الاسلام :

لم يشهد الوجود ديناً انتشر بسرعة جاوزت حد العجب ، وعمّ جزءاً كبيراً من المعمورة ، ودخل الناس فيه أفواجاً فى زمن قليل ، مثل الدين الإسلامى . فقد انبثق كالفجر يبدو ضئيلا ثم يستطير حتى يعم الأفق ، ثم يشتدّ النور ويقوى حتى يكون نهاراً مشرقاً منيراً ، يكون فيه للناس غدو ورواح ، ومعاش ومتاع

فى السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة ، حمّل الله سيدنا محمداً ﷺ أعباء الرسالة ، وبعثه الى الناس كافة ، هادياً وبشيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فقاومته قريش أولاً ، ولم يستجب له إلا القليل ، فأمره الله بالهجرة الى المدينة ، ومنها ظهر نوره ، فبدّد دياجير الشرك ، ومحت آيته آية الكفر .

ولما فتح مكة ، وتركت قريش عنادها ، ودخلت فى الاسلام ، دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وجاءت الوفود من أقاصى الجزيرة العربية تبايع على الإسلام ، وتدخل فى حماه الحصين ، وحرزه الأمين

وما انتقل رسول الله ﷺ الى الرفيق الأعلى فى السنة الحادية عشرة من هجرته حتى كان الإسلام قد عم الجزيرة العربية ، فأتهم وأنجد ، ودخل اليمن ، وأشرف على المحيط الهندى جنوباً ، ودخل البحرين ، وأشرف على خليج العجم ومغاص اللؤلؤ شرقاً ، وانتهى الى مشارف الشام شمالا ، وأطلّ على بحر القلزم غرباً .

وفى عهد الخلفاء الأولين امتد رواق الإسلام على المملكتين العظيمتين: مملكة فارس، ومملكة الروم. وامتد ظل الإسلام الى بلاد السند شرقاً ، والى بلاد الخزر وأرمينية وبلاد الروس شمالا ، ودخل فى عدله بلاد الشام ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقية أفريقية . وذلك كله فى خمس وثلاثين سنة .

ولم تأت سنة ١٠٢ هجرية فى عهد بنى أمية حتى استبحر الإسلام ، وامتد الى أن دخل فيه بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصل الى حدود الصين شرقا . وامتد غرباً الى أن دخل فيه بلاد الأندلس بأوربا .

من ذلك نعلم أن الإسلام كان يسير مسير الشمس فى البلاد ؛ ويهب هبوب الريح الطيبة فى الأقطار ؛ ويقطع الأرض كأنه الليل والنهار .

السر في انتشار الإسلام :

إنها لمعجزة تاريخية حقا ، لم تُعهد لملة غير ملة الإسلام.

إننا نعلم أن الناس جدّ حريصين على عقائدهم ، وجدّ ضنينين بديانتهم : يفرط المرء في ماله وولده ونفسه ، ولا يفرط في عقائده الموروثة عن الآباء والأجداد ، وجدّ نفورين من الحديث إذا كان يتعلق بالدين والعقيدة . وكان العرب أشد الناس حرصا على عقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وأعظم الناس نفورا من أن تخضع لرئيس أو نظام . فما هو السر الذي جعل الناس تسخو بعقائدها الموروثة ، وتفتح لذلك الدين الحديث عقولها وقلوبها ، يغزو الضمائر والعقول ، فيطرد تلك العقائد القديمة ، ويحل محلها ، ويستحوذ على العقول والفطر ، ويملك عليها أمرها ، ويتصرف بها كيف شاء ، ومتى شاء ؟

السر في أمرين : في الإسلام نفسه ، وفي الداعي اليه

وأصحابه وخلفائه من بعده . أما الإسلام فقد حمل عناصر الحق ، والخير ، والقوة ، والجمال المعنوى

الحق فى الإسلام وتأثيره :

جاء الإسلام بالحق فى العقائد ، وأقام الحجج والأدلة عليه بما يتفق هو والفطرة البشرية . والحق إذا قامت الأدلة عليه وظهر ، انقادت له العقول ، وكانت له السيطرة على النفوس ، وتصرّف فى الضمائر ، وتحكّم فى السرائر ، ولم يملك له المرء دفعا ، وكان كلما حاول الخلاص منه ، ملك عليه أمره

جاء الإسلام بإثبات إله للعالم ، خالق للكون ، قادر عالم ، مريد ، وأثبت ذلك بآثاره الظاهرة فى الكون ، وصنعته المحكمة البديعة

وأحالهم على ما ركز فى عقولهم من أن كل صنعة محكمة مرتبة ظهر منها القصد الى غاية ، ووضعت أجزاؤها ، ورتبت لتؤدى هذه الغاية ، لابدَّ لها من صانع ، ولم توجد نفسها ،

ولم تكن عن المصادفة . فكما يحيل المرء أن ساعة ذات أجزاء كثيرة وضعت ليحرك أحد أجزائها الآخر، وهكذا حتى يتحرك فيها ما يدل على الساعات والدقائق — وجدت من نفسها أو أوجدتها المصادفة العمياء، كذلك يحيل أن هذا الكون الذى كانت شمسه للإنارة ، وأرضه للقرار عليها ، وماؤه لإخراج النبات وسقى الحيوان ، وكل شىء فيه فلشىء أريد منه وغاية يؤديها — وجد بدون موجد

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً . وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً . وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً . وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً . وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) ؟

أقام الأدلة على أن مايعبدون من دون الله من الأصنام

والأوثان لا تستحق العبادة ، وأنها مربوبة لا أرباب ، وأنها عبيد مسخرة لله الذى خلقها . وأبان لهم أنها لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عنهم ولا عن نفسها شيئا ، وأنها ضعيفة مستذلة عاجزة ، فكيف يضعونها هذا الموضع من التقديس والإجلال والعبادة !

(أَيُشْرِكُونَ مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ولاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ)

(يأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

ذكرهم بعبر التاريخ ، وبأن إبراهيم عليه السلام كسر الأصنام التى كان يعبدها قومه ، فلم تدفع عن نفسها

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ! مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ! فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ . فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ؟

ثم أقام لهم النبي ﷺ الحجة عملا : فحطم الأصنام أمامهم ، وأذلها ورمى بها فى الرغام ـ قال ابن عباس : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلة ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي ﷺ

يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » فما أشار إلى صنم فيها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعى فى ذلك :

وفى الأصنام معتبر وعلم
لمن يرجو الثواب أو العقابا

رأت قريش أصنامها تهوى من عليائها ، وآلهتها يحطمها محمد ويرمى بها فى الرغام ،فعلمت أن مايقوله القرآن فيها حق، وأنها لوكانت تغنى شيئا لأغنت عن نفسها.وشاع ذلك فى الجزيرة العربية، فنبذت عبادة الأصنام ،وتخلصت من هذه المعبودات الظالمة المستبدة ، وحرر جزء عظيم من البشر من هذا الوهم الذى ملكهم ماشاء الله من السنين ، وتطهرت الإنسانية من هذه الوصمة : وصمة الخضوع للأحجار الصماء ، وللحيوانات الدنيئة

ولقد كان من العار على الجنس البشرى أن يخضع وهو أشرف مخلوق على الأرض — لهذه الحيوانات الذليلة وهذه الأحجار الصامتة .

طهّرهم الإسلام من دنس الشرك ، وصرف وجوههم عن الأرض الى السماء ، وجمعهم على معبود واحد هو قيوم السموات والأرض ، وتلك نعمة للإسلام على الإنسانية جمعاء .

جاء الإسلام بإثبات البعث والمعاد والجزاء فى اليوم الآخر ، ووضّحه بالأدلة حتى جعله لا يحتمل ريباً ولا شكا ، وأزال تلك الشبهة التى علقت بعقولهم ، وهى : إذا كانت الأموات عظاما ورفاتا متفرقة فمن يجمعها بعد التفرق ويحييها بعد البلى ؟ إن ذلك لرجع بعيد ! فأعلمهم أن من قدر على البدء قادر على الإعادة

(أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا

هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أثبت إلها للعالم ، وأثبت يوما يجازى فيه المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فوضع أسس الأخلاق ، وأقام

محكمة فى ضمير كل مؤمن يكون فيها المرء قاضيا ومتهما ومدعيا ، لايهمّ بفعل سيئة إلا رأى عين الله ترقبه ، ولا يفعلها حتى يقرع السن من ندم ، ويبلى بتأنيب الضمير

هـذا وأمثاله ، من الحق الذى جاء به الإسلام ، ولم نستوعبه لأن سبيلنا أن نمثل ولا نستقصى . وكله كما رأيت وضوح حجة ، وقوة برهان . وهو فى الوضوح والجلاء كالنهار المبصر ، والشمس ليس دونها سحاب . فلم يجد الناس من التصديق به بدًّا ، واضطر أشد المعاندين والمكابرين إلى الإيمان به والدخول فيه .

الخير فى الإسلام وتأثيره فى انتشاره :

وجاء بالخير ، فأمر بصلة الرحم ، وبالعفاف والمحبة ، والسلام والعـدل ، والإيثار والمساواة ، والصدق والوفاء بالعهد ، والصلاة والصدقة . والخيرُ يجد سبيله إلى النفوس فينساب فيها ، كما تنساب المياه فى مجاريها ، لا يحجزه حاجز ولا يقوم دونه شىء .

ونحن نتلو على القارىء بعض وصايا الإسلام ، ليعلم مبلغها من السمو والخير — قال الله تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا. إِنَّ رَبَّكَ

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً. وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً. وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً. وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً. وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ

مَكْرُوهاً . ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)

كل ما دعا اليه الإسلام حسن ، وكل ما أمر به خير وجميل . دعا الى الحلم والأناة وكظم الغيظ ـ قال الله تعالى:

(وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

نهى عن استهزاء المرء بأخيه ، والتنابز بالألقاب ، وأخذ الناس بالظنة ، وعن الغيبة والنميمة ، والخوض فى أعراض المحصنين والمحصنات

١ — يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلاَ

تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ، بِئْسَ ٱلاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ
ٱلإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ.
يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
ٱلظَّنِّ إِثْمٌ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ
بَعْضاً، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً
فَكَرِهْتُمُوهُ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ
آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَٱللهُ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ

٣ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلاَتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ
لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

٤ — وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ
شُهَدَاءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ
شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ. إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الجمال المعنوى فى الإسلام :

وأما الجمال المعنوى ، فقد أودع الله هذا الحق وهذا الخير فى القرآن الكريم، وهو حلو اللفظ ،رائع الأسلوب مونق معجب

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

ألفاظ كأنها قطع الرياض كسين زهرا ، ومعان كأنها أنفاس الأزهار حملن شذاً وعطرا. معان تامع بين ألفاظها كأنها النجوم ، وسر من أسرار الله حارت فيه الفطن والحلوم

ظهر هذا الحق والخير جميلين ،مونقين رائعين، بما فى القرآن من بلاغة، فراعهم جماله — وللجمال روعة — وأعظم ما يكون روعة فى الحق واليقين، والخير والبر

ظنوه سحرا ، لأنهم رأوا براهينه تغزوهم كأنها الجيوش الظافرة، وتهدر كأنها البحار الزاخرة، فلا تزال

تغزو عقولهم حتى تهزم عقائدهم الموروثة ، وتطرد أوهامهم المعششة

يغلقون أمامها كل باب ، فيجعلون فى آذانهم وقرا ، وعلى قلوبهم أكنة ، وبينهم وبينها حجابا ، فما يروعهم إلا أنها تسرى فى عروقهم سرى الماء فى العود ، وتتغلغل فى ضمائرهم تغلغل الفجر المنير فى ظلام الليل البهيم ، فتحول بين المرء وقلبه ، وتفرق بين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وأهله وقومه .

لما سمع الوليد بن المغيرة من النبى ﷺ (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ) الآية ، قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر ! »

كانوا يتعاقدون ألاّ يسمعوا لهذا القرآن ، ويبيتون ذلك ، فاذا جاء ميعاد استماع القرآن انحلَّت عقدهم الوثيقة ، وعزائمهم المحكمة ، وذهبوا الى الرسول ﷺ يستمعون القرآن

القوة فى تعاليم الاسلام :

وأما عنصر القوة ، فقد أمدّ الإسلامُ عصبة الحق والخير بكل المبادىء ، التى تقدم الأمم وتنميها ، وتعطيها السلطان والسيطرة والنفوذ .

علم أن من الأمم أممًا تكون فى اجتماعها كجسم حى يعمل كل عضو منه لمنفعة بقية الأعضاء ، وتسرى فيها روح وحياة ، وأنها تكون كذلك اذا اتحدت فى الدين والمشاعر والتصورات والغايات ، وأحسّت روح التعاضد والمحبة ، وعلم كل فرد فيها أن بقاءه وسعادته ببقاء المجموع وسعادته ، وأن هلاك المجموع وشقاءه هلاك وشقاء له ، فجمعهم على الحق والخير ، ووحّد مشاربهم وأغراضهم بوحدة الإسلام ، وألّف بينهم فى الله ، وأزال من بينهم العداوة والبغضاء ، فكانت الأمة الإسلامية جسمًا حيًا ، وجميع المسلمين أعضاء فيه ، وكان الإسلام هو روح ذلك الجسم الذى يبث فيه الحياة ،

وبه نموه وبقاؤه. وقد ذكّرهم بهذه النعمة العظيمة التى هى سر قوة الإسلام :

قال الله تعالى : (وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) وقال : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللهُ هُوَ ٱلَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

حث المسلمين على الاتحاد والتعاطف، والتواد والمحبة والوئام

روى البخارى عن النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله ﷺ: (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)

وقال ﷺ أيضاً: (المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)، وقال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) فجعلهم بذلك أمة واحدة لا يريدها أحد بسوء إلا خذل، وكانوا كالجبل الأشم لا تنال منه الحوادث، ولا تزعزعه العواصف.

وعلم الإسلام أن الأمم قد تصاب بأمراض اجتماعية تجعلها فى اجتماعها كأنقاض ملقاة: إن اجتمعت فأنقاض، وإن تفرقت فأنقاض، ليس بينها وحدة، ولا تماسك ولا قوة، وليس يفيدها الاجتماع خيرا، ولا تزيد باجتماعها على انفرادها، وأنها تكون كذلك إذا ضعفت رابطتها، وانحل ذلك الروح الذى كان يبعث فى الأمة القوة والحياة، وبليت

بالحسد والبغضاء ،وحب الدينار والدرهم ،والتهالك على الدنيا، فحذّر من هذه الأمراض الاجتماعية المفسدة للاجتماع ، والمقوضة للأمة ؛ فأمر بالمحافظة على روح الأمة (الدين)

واشتد فى ذلك شدة لم تكن فى غيره : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

قال رسول الله ﷺ :(دبّ اليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد ، والبغضاء) وقال : (الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وإنهما مهلكاكم)

وقال : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ،

وليَنزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنّ فى قلوبكم الوهن ، قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)

هذه هى الدعوة الإسلامية ، وإن دعوة تجمع الحق والخير والقوة والجمال المعنوى ، لهى دعوة محقق لها الفوز والنجاح ،وأن تصل الى أعماق القلوب ، ويستجيب لها ماشاء الله من ممالك الأرض

صاحب الدعوة الاسلامية وأثره فى انتشار الاسلام :

وأما صاحب الدعوة الإسلامية سيدنا محمد ﷺ ، فقد كان فيه من الخلال ما جعله ملء العيون والقلوب ، وجعل له النفوذ والسلطان على كل من يلقاه ـ كان لما كان عليه هو من خلق عظيم أحبّ اليهم من أموالهم ، وأولادهم ونفوسهم .

جمع العفــة والشجاعة ، والإقدام والأمانة ، وصدق

اللهجة ، والرحمة والمحبة ، وكان لا يعمل لنفسه ، وإنما يعمل للناس ، ولم يكن همه سعادة نفسه ، وإنما همه سعادة الجميع . يصفه الله بقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ويقول : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

كان مخلصاً لدعوته ، موقناً بها ، فانياً فيها ، لا يريد بها الدنيا بحذافيرها ـ جاءت قريش الى عمه أبى طالب ، وقالوا له : إنا نعطى محمداً ما يشاء من مال ونعم ، ويكف عن ذكر آلهتنا ، فكلمه عمه فى ذلك ، فبكى ، وقال : (ياعم ، والله لو جعلوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) !

كان شديد العزم فلا يهن ، قوى الإرادة فلا يضعف ، تقوم أمامه الصعاب كالجبال ، فيجعلها كثيباً أهيل .

كان يرى ، فيعزم ، فيمضى . فلو أن الطبيعة بما فيها

حاولت أن تثنيه لم تثنه ؛ ولو أن الدنيا ملئت عقبات وصعاباً، لما بالى بها ، ولأخذ فى تذليلها

رأوه لا يطلب لنفسه ملكا ولا جاهاً ولا مالا ، بل رأوه يبذل راحته ونفسه وماله لإسعاد البشر (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً) (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)! (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ . وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)

كان يحزن لشقاء البشر واضلالهم ، ويكبر به أن يراهم كالأنعام السائمة : يظلم بعضهم بعضا ، ويعدو بعضهم على بعض ، وأن يغشوا ويغدروا ويفحشوا ، ويسيروا فى تلك

الطريق التي فيها هلاك الدنيا والآخرة : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

وقد علم الله ما به ، فروّح عنه ، وهوّن عليه ، وقال له : (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ) (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)

(طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

رأوه صادقا أمينا فى الحديث ، لم يأثروا عليه كذبة ،

فعلموا أنه ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله

كان ﷺ عظيم الحلم، كثير الاحتمال، يصبر على الأذى، ويعفو عند المقدرة

١ — روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما خُيّر رسول الله ﷺ فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها

٢ — روى أن النبى ﷺ لما كسرت رَباعِيَته وشج وجهه يوم أحد، شق ذلك على أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: (إنى لم أبعث لعّانا، ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللهم اُهد قومى فإنهم لايعلمون)

٣ — عن أنس رضى الله عنه: كنت مع النبى ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثّرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه، ثم قال: يامحمد احمل لى على بعيرىّ هذين من مال الله الذى عندك، فانك لا

تحمل لى من مالك ولا مال أبيك ! فسكت النبى ﷺ ثم قال: المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى؟ قال: لا. قال: لم؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة، فضحك النبى ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر بُر

٤ — روى مسلم أن رسول الله ﷺ كان فى حرب، فاستظل تحت شجرة بعيداً عن أصحابه، وقد علق سيفه بتلك الشجرة، فجاء رجل مشرك فأخذ سيف رسول الله المعلق ووقف على رأسه وفى يده السيف، ثم قال للنبى: ما يمنعك منى؟ فقال: الله عز وجل يمنعنى منك. فدهش الرجل فى نفسه وسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله السيف من الأرض وقال: من يمنعك الآن؟ فقال الرجل: كن خير آخذ، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: لا، غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء إلى قومه

فقال : جئتكم من عند خير الناس

٥ — آذت قريش النبي ﷺ لما دعاهم إلى الإسلام ، وآذوا من آمن معه، وقاسى منهم الشدائد، واصطبر على المصائب فأدال الله له منهم، وحكمه فيهم، وفتح عليه بلدهم مكة فلم تشك قريش أنه سيستأصل شأفتهم، ويبيد خضراءهم فقال : ما تقولون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال : أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء

وكان جواداً كريماً : يسخو بالكثير ، ولا يسأل إلا أعطى — قال ابن عباس رضى الله عنه : كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون فى شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة

١ — عن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع

إلى بلده ، وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة

٢ — أعطى غير واحد مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة ثم مائة ثم مائة

٣ — ردّ على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف

٤ — حمل اليه تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام اليها فقسمها ، فما ردّ سائلا حتى فرغ منها

ولم يكن كريماً بعد البعثة فقط ، بل كان كريماً جواداً قبلها أيضاً. وفى حديث خديجة رضى الله عنها أنها قالت له ﷺ: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق

وكان شجاعا باسلا ، قويا لا يرهب ، مقداما لا يدبر ـ فرّت الناس عن رسول الله يوم حنين ورسول الله ﷺ لم يفر ، بل بقى راكباً على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ

بلجامها ،والنبي يقول:أنا النبي لا كذب،أنا ابن عبدالمطلب. فما رئى يومئذ أحد كان أشد منه ـ قال على رضى الله عنه: إنا كنا إذا حمى البأس،واحمرّت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً

وكان أشد الناس حياء، وأكثرهم إغضاء ، وكان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد. وكان يكنى عما اضطره الكلام اليه مما يكره ـ قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه

ولقد كان على الجملة أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة . يؤلف الناس ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويتفقد كل أصحابه ، ويعطى كل واحد من جلسائه نصيبه. مَن جالسه

أوقار به لحاجة ،صابره حتى يكون هو المنصرف عنه،ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً،وصاروا عنده فى الحق سواء . وكان دائم البشر سهل الخلق ،لين الجانب، ليس بفظ ، ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مداح

بهذا وصفه أصحابه وأعرف الناس به :

١ — عن عائشة رضى الله عنها : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله مادعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : لبيك

٢ — عن أبى قتادة: وفد وفد للنجاشى فقام النبى ﷺ يخدمهم فقال له أصحابه: نكفيك ،فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإنى أحب أن أكافئهم

٣ — قال ابن الطفيل: رأيت النبى ﷺ وأنا غلام،إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه، فبسط لها رداءه ، فجلست عليه فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته

هذا إلى ما خصه الله به من الآيات البينات، والمعجزات الباهرات

كل ما ذكرناه من الخلال، وما لم نذكره من الفضائل النفسية، التي تحلى بها صاحب الرسالة الإسلامية ﷺ إلى ما أُيد به ﷺ من الآيات الناطقة، والمعجزات القاطعة، جعله ذا سلطان على النفوس، وذا نفوذ على القلوب، لا يرد له قول، ولا يعصى له أمر. وكان أصحابه معه كما قال له سعد بن عبادة: والله لو خضت بنا البحر لخضناه معك.

كانت هذه أخلاقه، وكان هذا سلطانه على القلوب؛ ثم جاءهم بدين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ذلك الدين الذي يساير فطر الناس، وكأنه مركوز في الطبيعة الإنسانية لا تأبى عليه الفطر السليمة، ولا تنبو عنه. فلا غرو أن يكون الإسلام أسرع إلى نفوس القوم من السيل إلى منحدره، وأن يمتزج بنفوسهم، ويلتصق بعقولهم، ويتصرف بهم فلا يجدوا عنه حولا. ولا غرو أن ينتشر

بسرعة لم يعهد مثلها فى التاريخ .

يلاحظ المؤرخ أن الإسلام كان وانيًا بمكة : يمشى رويدا ، وأنه لم يعظم انتشاره وتقدمه إلا بعد هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، وبعد فتح مكة ودخول قريش فى الإسلام. ومرجع هذا البطء بمكة إلى ما كان فى قريش من عناد وإصرار، لأنهم كانوا يخافون على زعامتهم الدينية، ومنافعهم الدنيوية ، فلقد كانت الكعبة التى يعظمها العرب ببلدهم مكة، وكانت أصنامهم التى يدينون لها بالتعظيم منصوبة حول الكعبة وفوقها ، وكانوا يحجون إلى الكعبة فى كل عام ،فتعظم تجارة قريش، وتروج أسواقهم ، وكانوا يخافون بدخولهم فى الإسلام أن تذهب كل هذه المزايا والمنافع ، بل كانوا يخافون على أنفسهم الهلاك (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) .

وكان بين بنى هاشم وبين بطون قريش منافسة ومنازعة للشرف والسؤدد ، وخافت قريش — إن أقروا لبنى

هاشم بالنبوة — أن يذهبوا بالمفاخر كلها

أخرج ابن هشام عن ابن شهاب الزهرى أن أباسفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ،وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا ،فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ،فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد

لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة! والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها! قال الأخنس: وأنا والذى حلفت! قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، قال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه! قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

دفعهم كل ذلك الى العناد والجحود، والإصرار عليهما، والوقوف فى سبيل الدعوة، وفتنة المسلمين بكل أنواع

العذاب، فأذن الله للمسلمين أن يقاتلوا أهل مكة دفاعا عن أنفسهم والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ودفاعاً عن الدعوة التي وقفوا في سبيلها، وصدوا الناس عنها

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وكانت العرب تنتظر ما يكون بين محمد وأهله، فلما دخل أهله في دينه، وزال ذلك المانع، وجد الحق الفطري سبيله الى النفوس، ودخل الناس فيه أفواجا

إن الذين يزعمون أن الإسلام قامت دعوته على السيف لا يستقيم لهم هـذا الزعم إلا اذا فرضوا أن محمداً نشأ

ملكا له العساكر والجنود، والرايات والبنود، والعدد والعدة، والقوة والمنعة ، وأنه حمل الناس بما يملك من جيش وقوة على الدخول فى الإسلام

ومن أين يستقيم لهم هذا الفرض والتاريخ يحدث أن محمدا ﷺ نشأ يتيما ، وبعث إلى الناس وحيدا فريدا : الناس كلهم فريق ، وهو وحده فريق ، لا قوة ، ولا سلطان ، ولا ملك ، ولا أعوان ، وليس بيده من قوة إلا قوة الحق والخير، وما فيهما من جمال — وأعظم بها من قوة ! — أين منها قوة الرجال والأعوان ، والسلاح ، وجميع قوى الأرض المادية ؟ ! فأخذ يدعو قريشا الى الإسلام ، ويعرض نفسه على القبائل ، وكان يعتمد على الإقناع والحجة

وكان اذا دخل المرء فى الإسلام واقتنع بحججه وبيناته، لم تقدر قوة فى الوجود على إخراجه منه: يبتلى فى ماله وأهله ونفسه ووطنه لأجل الإسلام، ويأبى أن يبغى عنه بديلا

أسلم عمار بن ياسر وأمه وأهل بيته، فعذبوا فى الله، وكان

رسول الله ﷺ إذا مرّ بهم يقول : صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة . وأسلم بلال بن رباح ، فعذبته قريش أشد العذاب، فهان على قومه وهانت عليه نفسه في الله، وكان كلما اشتد عليه العذاب يقول : أحد ، أحد، فيمر به ورقة بن نوفل فيقول : أي والله يا بلال : أحد أحد ، أما والله لو قتلتموه لأتخذنه حنانا !

ومرّ أبو جهل بسمية أم عمار بن ياسر وهي تعذب هي وزوجها وابنها ، فطعنها بحربة في موضع العفة حتى قتلها !

كانوا يبلون بأنواع الفتنة والعذاب والاضطهاد ، حتى اضطر بعضهم الى أن يهاجر إلى الحبشة فراراً بدينه .

أين السيف في هـذا ! هل تجد إلا حقا وإقناعا ؟ لقد كانت القوة تعمل في العكس : فكانوا يضطهدون على الخروج من الإسلام لا على الدخول فيه

ثم جاء نفر من المدينة فأقنعهم النبي ﷺ بالإسلام ، فدخلوا فيـه ودعوا قومهم اليه : الأوس والخزرج ،

فاستجابوا اليهم ، ثم هاجر النبي ﷺ إليهم المدينة ، فآووه ونصروه ، وخلّصوا المسلمين الذين هاجروا اليهم من اضطهاد أهل مكة وعسفهم وجورهم .

أفترى فى كل ذلك سيفا وإكراها ، أم ترى الاقتناع كل الاقتناع ، والاختيار كل الاختيار ؟

إذا كان قد هالهم انتشار الإسلام وسيرورته فى الآفاق فى زمن يسير ، ورأوا أن ذلك لا يكون إلا من فعل القوة المادية والإكراه ، والسيف ، فليعلموا أن الاقتناع واليقين أقوى أثرا وأعمق غورا ؛ وأن اليقين لا يقوم أمامه شيء ، حتى القلاع الشامخة ، والأطواد الباذخة

أما القوة المادية وحدها ، فأثرها التخريب لا التعمير والهدم لا البناء ، ثم لا يلبث أن يزول

تعرف هرقل ملك الروم حقيقة الاسلام وصاحبه واقتناعه به وتوقعه انتشاره :

وقد ألمّ هرقل ملك الروم بكثير من هذه المعانى التى تقدمت ، وتعرّف من أبى سفيان ـ أيام كان أبو سفيان مشركا على دين الجاهلية ـ طبيعة الدعوة الاسلامية ، وطبيعة الداعى اليها ، وطبيعة الداخلين فيها ؛ ثم توقع ظهوره ، وأنه يملك ما تحت قدميه . ونحن نسوق هذا الحديث لجدواه وعظيم فائدته فى هذا الموضوع :

روى البخارى فى صحيحه : عن ابن عباس رضى الله عنه أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل اليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ؛ فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم فدعا بالترجمان ، فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا

الرجل ، الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم . فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه . فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت: ضعفاؤهم. قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون. قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه؟ قلت : لا . قال : فهل تتهمونه بالكذب ، قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لاندرى ما هو فاعل فيها (ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة) قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال : ينال منا ،وننال منه . قال: فما يأمركم ؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : إنى سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها. وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله . وسألتك : هل كان فى آبائه من ملك ، فذكرت أن لا . فقلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك:هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ،ويكذب على الله . وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه،وهم أتباع الرسل.وسألتك:

أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك : بما يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمى هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ! ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل ، فقرأه فاذا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم — سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ،

أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ؛ فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين (يَأَهلَ ٱلْكِتَابِ تعالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللَّهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ،وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

قال : قال أبو سفيان : فاما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ،كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابي : لقد أَمِرَ أمْر ابن أبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأصفر ؛ فما زلت موقناً أنه سيظهر ،حتى أدخل الله عليّ الاسلام . اهـ

فأنت تراه قد تعرف الدعوة الإسلامية،فعلم أنه يدعو الى الصلاة والصدقة وصلة الرحم وعدم الشرك بالله، فعلم أنها حق وخير وقوة . وتعرف الداعي ، فعلم أنه لا يكذب، ولا يغدر،ولا يخون،ولا يطلب لنفسه ملكا، ولا مالاً ولا جاهاً،

فعلم أنه صادق غير كاذب ، وأنه من أولئك الرسل الذين يرسلهم الله لخير الإنسانية. وتعرّف نفوس من يدخلون فى الإسلام، فإذاهم يملؤهم يقينه، ويبهرهم سلطانه، وتخالط بشاشته قلوبهم، فلا يرتد أحد سخطة لدينه ، بل كان يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف به فى النار

فعلم أن الحق والخير إذا صارا يقيناً وعقيدة كانا قوة، لا يقوم لها شيء ، وسيملك أصحاب هذا اليقين المؤمنون به المطمئنون اليه ما يشاءون من بقاع الأرض، ولا يأبى عليهم ملكه الحصين ، ودولته العظيمة القوية

أثر الخلفاء والصحابة فى انتشار الاسلام :

وأما أصحابه وخلفاؤه من بعده ، فقد كان لهم الأثر العظيم ، فى نشر الإسلام ، فيما وراء جزيرة العرب ، لأن الإسلام رباهم تربية خلقية ، وثقّفهم تثقيفاً دينيا ، وكرّه اليهم الكفر والفسوق والعصيان، والظلم والعدوان، وحبّب

اليهم الخير والإيمان ، والعدل ، والانتصاف من الظالم للمظلوم، وأعلن لهم أنهم هداة البشر،وأن عليهم أن يسعوا فى صلاح الدنيا ، وأن يعملوا على أن يملئوها عدلا ، كما ملئت ظلماً وجوراً(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) فطفقوا يدعون الى الإسلام. وكانوا دعاة بسيرتهم ، وأخلاقهم ، وعدلهم قبل أن يكونوا دعاة بأقوالهم .

أخرج ابن عبد الحكم عن أنس ، قال : أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، عائذ بك من الظلم ! قال : عذت بمعاذ . قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته ، فجعل يضربنى بالسوط ، ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم

عليه ، ويقدم بابنه معه ، فقدم ، فقال عمر : أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضرب به بالسوط ، ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى ، وقد اشتفيت منه ، فقال عمر لعمرو: مُذكم تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! قال : يا أمير المؤمنين ، لم أعلم ولم يأتنى .

فبهذا العدل فى الرعية ، وبهذه المساواة بين الناس . حبب إلى الناس الدخول فى الإسلام ، أو الدخول تحت حكم أئمة الإسلام .

ومَن من الناس يسمع أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ساوى بين ابن عمرو بن العاص أمير مصر ، و بين أحد الرعايا فيها ، واقتص منه ، ولا يودّ الدخول فى حكم الإسلام ، أو فى الإسلام ، ليتمتع بهذه الحقوق المدنية ، التى لا يجدها فى قانون غير الإسلام ، ولا فى ملوك غير ملوك الإسلام ؟

وكان ذلك فيهم من أثر القرآن ، وتربية الرسول ـ قال الله تعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) وقال رسول الله ﷺ : (ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) .

وحبب الإسلام إليهم الرفق بالرعية والرحمة (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وروى عن عائشة رضى الله

عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هـذا : (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به)

ربّاهم الإسلام على الحلم والأناة ، والصفح والعفو ، والكرم والسخاء

روى أنه حصلت فى زمن أبى بكر مجاعة ، وكان سيدنا عثمان رجلا غنيا ، جاءه ألف راحلة من الشام ، تحمل قمحا وزبيبا وطعاما وزيتا ، فجاء اليه تجار المدينة ، وقالوا له : نريد شراء ما عندك ، فقال لهم : كم تربحونى ؟ فقالوا : الدرهم بدرهمين . قال : قد أعطيت زيادة . قالوا : أربعة . قال : قد أعطيت زيادة . قالوا : خمسة . قال : قد زادونى . فقال التجار : ليس فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا اليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟ قال : إن الله أعطانى لكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم

معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . وتصدق بالأحمال جميعها

فبذلك ومثله دخل الناس فى دين الله أفواجا . وزين الله فى قلوبهم الإيمان . وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)